الحب والمال

حدث منذ زمان طويل أن كانت تعيش في مدينة «ماتهورا» –مسقط رأس الإله كريشنا» –غانية لعوب تدعى «فاتنة». وكانت أمها التي تعمل وسيطة لها في جلب العملاء تسمى «تمساحة». وعلى قدر ما كانت «فاتنة» صارخة الفتنة حقاً، كانت الأم بمثابة القذى في أعين شبان المدينة العاشقين لابنتها!

وذات يوم، كانت فاتنة تتجه صوب ساحة المعبد، حين لمحت – من بعيد –شابًا طويل القامة، مفتول الذراعين، متناسق القسمات. فراح قلبها يخفق بعنف، وطارت من رأسها كل الدروس التي تلقتها عن أمها في فن الغواية والإغراء! وفي الحال قالت لخادمتها: «اذهبي بهذه الرسالة إلى الرجل الواقف هناك، وإطلبي منه أن يحضر إلى منزلي على الفور! ».

وقرأ الشاب الرسالة ثم ألتفت إلى الخادمة قائلًا: «إنني برهمي فقير وأسمي «أوهاجانجا»: وأنا لا أملك شروى نقير، فمن أكون حتى تلج قدماي دار فاتنة التي لا تفتح بابها إلا لأسياد القوم؟»، فأجابته الخادمة قائلة: «إن سيدتي لن تطلب منك مالاً!» وعندئذ وافق الشاب قائلاً: «قولي لسيدتك إني سأحضر في المساء!».

فما علمت «فاتنة» بموافقة الشاب حتى كادت تطير من الفرح، وهرعت إلى منزلها وقد امتلأ قلبها بالسعادة، وهناك راحت تذرع غرفتها جيئة وذهابًا، وهي لا تكل من النظر إلى الشارع، بين هنيهة وأخرى. وأخيرًا حضر الشاب «لوهاجانجا»، فما أن رأته «تمساحة» –أم الفتاة – حتى راحت تسائل نفسها من يكون ومن أين أتى! أما فاتنة فقد استقبلته استقبالًا حارًا ينم عن مدى عشقها إياه ورغبتها فيه. وقد ألقت ذراعيها حول عنقه وضمته إليها بعنف، ثم أخذته إلى مخدعها! وعاش الشاب في منزل الغانية وأمها، لا يغادره إلا للضرورة القصوى، بينما فقدت «فاتنة» اهتمامها بغيره من الرجال!

وإذ أدركت الأم أن ابنتها قد وقعت صريعة العشق والهوى تولاها حزن فظيع، وهي لا تفتأ تسأل نفسها كيف وقعت ابنتها في هذا الخطأ الفاحش، وهي التي لقنتها ولقنت غانيات الحي فنون الفتنة والغواية. وانتهزت –ذات يوم –فرصة اختلائها بابنتها وقالت لها: «ماذا دهاك يا ابنتي؟ كيف تقبلين أن تعاشري مثل هذا الشخص المفلس؟ إن البغي «الفاضلة» تؤثر احتضان جثة ميت على معاشرة رجل فقير! فما شأن الغانية بالحب؟ هل نسيت المبدأ الأول: إن البغي العاشقة تشبه ضوء الشفق، فكلاهما إلى زوال سريع؟ خليق بك أن تفعلي كما تفعل الممثلة إذ تتظاهر بالحب لتفوز بالمال! اطردي ذلك التعس وإلا حطمت حياتك! ».

لكن «فاتنة» أجابتها في غضب: «لا تتحدثي هكذا. إنني أحبه أكثر من حياتي. ثم إن لدي من المال ما يكفيني، فما حاجتي إلى مزيد منه؟.. وإياك أن تتحدثي إلى هكذا مرة أخرى يا أماه!»، فاشتد القنوط بالمرأة، وراحت تنقب في ذهنها عن طريقة تتخلص بها من «أوهاجانجا».

وقد واتتها الفرصة لذلك حين لمحت -ذات يوم -في الطريق، أحد الفرسان الذين كانوا يجوبون البلاد للنهب والسلب، وقد بدا عليه الإفلاس، ومعه كوكبة من زملائه، فركضت إليه وانتحت به في مكان منعزل، وقالت له: «أغثني يا سيدي. لقد احتل عاشق مفلس منزلي، رافضًا الجلاء. فإذا ما استطعت - بأية وسيلة -أن تطرده من المنزل، أعدك بنصيب من المسرات مع ابنتي!».

فوافق الفارس على الصفقة في الحال ودخل منزلها. وقد صادف أن كانت «فاتنة» في الخارج إذ ذهبت إلى المعبد، في حين خرج «لوهاجانجا» ليقضي بعض حوائجه، فلما عاد هذا إلى المنزل، مطمئن البال، لا تخالجه بادرة من الشك فيما دبرته له المرأة الشريرة، انقضت عليه عصابة الفارس من كل جانب، وإنهال عليه رجالها ضربًا وركلًا، حتى سال الدم من كل جسده، وأخيًرا ألقوا به في وعاء للقمامة. بيد أنه تمكن -بطريقة ما -من الفرار. حتى إذا عادت «فاتنة» وعرفت ما حدث استولى على قلبها حزن مطبق. فلما رأى الفارس من قسماتها مدى حزنها على عشيقها، فضل أن ينصرف لحال سبيله.

وانطلق «لوهاجانجا» يهيم في أرجاء الأرض على غير هدى، ضاربًا في مجاهل البلاد، وقد احترق قلبه -بفعل الغضب المكظوم بسبب ما أصابه من إهانة -واحترق جسده بفعل حرارة شمس الصيف، فألتمس لنفسه مكانًا يستظل فيه ولم تكن ثمة أشجار، بيد أنه لم يلبث أن عثر على فيل ميت، كانت الذئاب قد التهمت لحمه ولم تترك منه سوى الجلد. فأنسل «لوهاجانجا» داخل جلد الفيل الذي جعله ما تسرب فيه من هواء عليل باردًا، رطبًا. ولم يلبث أن استغرق في النعاس من فرط التعب والإرهاق.

وفجاة هب إعصار عنيف، وتوافدت السحب من كل جانب، وسقطت الأمطار غزيرة، فانسابت المياه في الجلد فانتفخ. وحملته السيول إلى نهر «الجانجز» الذي حمله بدوره ثم ألقى به في المحيط. ولم يلبث طائر ضخم من فصيلة «الجارودا» أن حلق فوق المياه، فوقع بصره على الهيكل الطافي فظنه رمة ميت. ومن ثم انقض عليه وحمله بين مخالبه إلى شاطئ بعيد، وهناك شق الطائر بمنقاره جلد الفيل، فيما أبصر الرجل الراقد بداخله، حتى انتابه الفزع وطار بعيداً.

وبعد فترة استيقظ «لوهاجانجا» من نومه، فاستولت عليه دهشة لا مزيد عليها إذ وجد نفسه في ذلك المكان النائي، وقد خيل إليه أنه في حلم. لكن الدهشة ما لبثت أن تحولت إلى رأس قاتل حين شاهد غولين ضخمين ينتصبان أمامه. بيد أن الغولين لم يكونا أقل منه خوفًا وفزعًا، إذ

تذكرا الهزيمة التي هنيا بها على يدي البطل «راما». فلما رأيا ذاك الآدمي، وقفا يحملقان فيه دون أن يحركا ساكنًا.

وبعد مداولة قصيرة بينهما، ذهب أحدهما إلى الملك «فريبهيشاتا» لينذره بقدوم الآدمي الغريب، فاضطرب الملك أيما اضطرب، وقد شاهد بنفسه من قبل جبروت «راما». وقال للغول: «اذهب إلى ذلك الآدمي، وأطلب إليه –في أدب –أن يشرف منزلي بزيارته!»، فأجابه الغول: «سمعًا وطاعة!»، ثم ذهب ليؤدي الرسالة التي كلف بها، وهو يرتجف خوفًا وفرقًا.

وقبل البرهمي دعوة الملك بارتياح. فقاده الغول إلى القصر الملكي في مدينة «لانكا» عاصمة ملكه. وفي الطريق إلى القصر، راح «لوهاجانجا» يردد الطرف في أنحاء المدينة، فأذهلته كثرة القصور المشيدة بالذهب الخالص التي تزخر بها. واستقبله الملك بالترحيب اللازم، وتحدث إلى ضيفه باحترام وتبجيل، قائلًا: «كيف استطعت –أيها البرهمي –الوصول إلى هذه البلاد؟»، فأجابه الرجل الماكر: «إنني من مدينة «ماتهورا،» وأسمي «لوهاجانجا». وقد كنت أعاني فقرًا مدقعًا، فذهبت إلى أحد المعابد حيث جثوت أمام الإله «فيشنو»، وصمت عن الطعام فترة طويلة. فاستجاب الإله المبارك لدعواتي، وظهر لي في الحلم قائلًا: «اذهب إلى «فيبهيشانا». فهو من عبيدي المخلصين، وهو الذي سيجعلك ثريًا». فقلت له: «لكن «فيبهيشانا» يقطن بلداً بعيداً، وليس من وسيلة لبلوغه!». بيد أن الإله عاد يقول لي: «اذهب إليه ولسوف

تقابله اليوم!». وعند ذاك استيقظت من نومي، فإذا بي أجد نفسي راقدًا على الشاطيء. هذا كل ما أعرفه! ».

واستمع «فيبهيشانا» لكلمات «لوهاجانجا» وهو يتذكر قوة «لانكا»، فأيقن أن هذا الرجل يتمتع بقوة سماوية خارقة، وأجابه قائلاً: «امكث هنا، سأغرقك بالخيرات!».. ومن ثم أودع البرهمي في رعاية الغول –آكل لحم البشر –بعد أن أوصاه به خيراً، ثم أوفد الغول الآخر إلى جبل «سفارنامونا»، ليحضر طيراً حديث الفقس من فصيلة «الجارودا». ثم سلم الطائر للآدمي ليتدرب على أعدائه، قبل أن يتأهب للعودة إلى «ماتهورا».

وما أن أبدى «لوهاجانجا» رغبته في الرحيل، حتى قدم إليه الملك عدداً وفيراً من الجواهر النفيسة التي لا تقدر بمال، وأعطاه زهرة «لوتس»، وصدفة بحرية، وقرصاً من الذهب الخالص، وصولجانا، ليحل ذلك كله كتقدمات تعبر عن إخلاصه وخضوعه للإله «فيشنو» الذي اتخذ من مدينة «ماتهورا» مقراً له.

وحمل «لوهاجانجا» الهدايا، ثم امتطى ظهر الطائر الذي وهبه الملك إياه كهدية وداع، والذي كان قادرًا على التحليق مسافة ألف فرسخ. وبدأ رحلته من لانكا، ثم عبر المحيط، وما لبث أن بلغ «ماتهورا»، دون أن يصادفه ما يعوق رحلته، وهبط بالقرب من دير مهجور، خارج المدينة، حيث خبأ الكنز، وربط الطائر! ثم اتجه إلى

السوق فباع إحدى الجواهر، وإبتاع بثمنها ثياباً وزيوتاً وطعاماً. ثم تناول الطعام في أحد الأروقة، وتسربل بالثياب الفاخرة، وتعطر بالزيوت، وتزين بالأزهار.

حتى إذا أرخى الليل سدوله، أمتطى الطائر مرة أخرى حاملاً معه القرص والصولجان والصدفة البحرية، وطار نحو منزل فاتنة. وهناك راح يحلق في الهواء، ثم أطلق صفيراً خافتاً لينبه عشيقته. فما سمعت الغانية الصفير حتى هرعت إلى السطح. وإذا بها ترى رجالًا على هيئة «فيشنو» يحلق في السماء، حاملاً جواهر تلتمع وتبرق، ويقول لها: «إنني فيشنو! وقد جئت أطلبك!». فوقعت على وجهها أمامه وهتفت قائلة: «رحماك يا مولاي. رحماك!». وعندئذ هبط «لوهاجانجا» على السطح، وربط الطائر، ثم ذهب مع عشيقته إلى مخدعها. وبعد أن تذوق –بين أحضانها –ملذات الحب والغرام، خرج وأمتطى ظهر الطائر وحلق به في الفضاء.

وفي اليوم التالي، أبت فاتنة أن تتحدث إلى أحد، وهي تقول في نفسها: «لقد اختارني «فيشنو» زوجة له. ومن ثم لن أتحدث إلى أحد من البشر الفانين».. وقالت لها أمها: «ما خطبك يا ابنتي؟ أخبريني!». لكن «فاتنة» أسدلت ستارًا بينها وبين أمها. فلما ألحت عليها في السؤال، قصت عليها أمر الشرف الرفيع الذي أسبغه عليها الإله العظيم وفي بادئ الأمر، خالجت الريبة الأم في صحة القصة، ولكنها ما لبثت أن لمحت –في الليلة ذاتها –شبح «لوهاجانجا» فوق طائره، فلم يسعها إلا التصديق.

وفي اليوم التالي انحنت «تمساحة» أمام ابنتها من خلف الستار، وأخذت تناشدها قائلة: «حقًا إنك قد بلغت منزلة الآلهة يا ابنتي. لكننا لا نزال فوق الأرض، وأنا أمك التي ولدتك. فكوني ابنة بارة وامنحيني الجزاء الذي أستحقه، أطلبي إلى الإله أن يجعلني –أنا المرأة العجوز– ادخل الفردوس بجسدي الذي أحمله. كوني رحيمة بي!». فأجابتها فاتنة: «سأفعل!». وبالفعل نقلت أمنية أمها إلى «لوهاجانجا»، حين جاء إليها تلك الليلة، متنكرًا في هيئة الإله فيشنو!

ولعب «لوهاجانجا» دوره بمهارة، فأجاب عشيقته قائلاً: «أن أمك امرأة شريرة، وهي –بالتأكيد– جديرة بدخول الفردوس. ومع ذلك، ففي فجر اليوم الحادي عشر، ستفتح أبواب الفردوس، ليلج إليه أولاً أولئك الذين حفظوا برضاء «سيفا». ولن تستطيع أمك بأية حال من الأحوال الدخول إلا إذا تنكرت بإتقان. لذلك عليك بحلاقة شعر رأسها بالموسى، حتى لا تبقى فيها على شعرة واحدة فيما عدا خمس خصلات متفرقة، ثم أحيط عنقها بقلادة من الجماجم البشرية، وأطلي أحد جانبي وجهها بالقار الأسود، والجانب الآخر باللون الأحمر الفاقع، ثم جرديها من ملابسها. فإذا ما تنكرت بهذا الشكل حسبها حارس الجنة إحدى اللواتي نلن الحظوة. وهكذا أستطيع أن أدخلها الفردوس دون أن يكتشف أحد أمرها».

وبعد أن ألقى إليها «لوهاجانجا» بتعليماته، مكث معها بعض الوقت ثم انصرف، وفي الصباح نفذت فاتنة التعليمات حرفيًا، وظلت

العجوز الداعرة تنتظر بشوق لذات النعيم !.. وفي منتصف الليل ظهر «لوهاجانجا» ثانية. فتركت فاتنة أمها في رعايته.. فاصطحبها وهي عارية، وأمتطى معها الطائر، وسرعان ما كان ينطلق بها في عنان السماء، ولم يلبث أن لمح أمام أحد المعابد عاموداً طويلاً مصنوّاً من الحجر وقد علت هامته أسطوانة دائرية. فأرسى المرأة فوق العمود، وهنالك تركها معلقة في الفضاء لا يحميها من السقوط سوى تلك الأسطوانة. وظلت هناك كأنها بيرق يخفق في الهواء معلناً عن انتقامه من تلك المرأة التي أهانته أيما إهانة!

وقبل أن يتركها قال لها: «امكثي هنا، ريثها أعود إلى الأرض لأنعم على الناس بخيراتي! ثم اختفى عن أنظارها!

وأثناء ذلك تجمع أمام المعبد حشد من المصلين الذين وفدوا ليقضوا فيه ليلة العيد الكبير. فخاطبهم «لوهاجانجا» من سمائه قائلاً: «أيها الناس. ستسقط عليكم اليوم من الأعالي أخبث ألهة من ألهة الدمار.. إنها ألهة «الطاعون». فليكن لكم في فيشنو ملاذًا!». فما سمع أهالي «ماتهورا» –المحتشدون أمام المعبد –هذا الصوت الصادر من السماء، حتى انتابهم الذعر والفزع، وهرعوا ملتمسين الحماية من الإله، متوسلين إليه في صلواتهم أن ينقذهم، وفي تلك الأثناء هبط «لوهاجانجا» من السماء، وخلع ثياب التنكر، ثم اندمج في الجماهير !!

وعلى قمة العامود جلست الحيزبون تخاطب نفسها قائلة «إن الإله لن يعود اليوم، ولن أدخل الفردوس الآن! .. ثم نظرت إلى أسفل من ذلك العلو الشاهق فانتابها الدوار، وأحست بأنها ستسقط وشيكًا، فهتفت في فزع قائلة: «إنني سأسقط!».. فلما بلغت صرخاتها مسامع الناس رفعوا أنظارهم إلى أعلا، فرأوا تلك الشمطاء المشوهة، فحسبوها ألهة الطاعون التي أنذرهم بها الصوت الصادر من السماء، وراحوا يتوسلون إليها قائلين: «كلا.. لا تسقطي.. لا تسقطي أيتها الألهة!».

وظل أهالي «ماتهورا» –شيباً وشباباً –في حالة لا توصف من الخوف والفزع، مترقبين سقوط ألهة الطاعون فوقهم من لحظة لأخرى !.. ولكنهم حين تبلج الصبح استطاعوا أن يميزوا المرأة العجوز، بشكلها الذي يدعو إلى السخرية.. فتبدد الخوف عنهم وانفجروا ضاحكين. وما أن سمعت «فاتنة» بما حدث حتى هرعت إلى المعبد، فلما تبينت أن المرأة التي تثير الهزء هي أمها استولى عليها خجل فظيع .. وقد عاونها بعض أهل الخير على إنزالها من فوق العامود!

وفي فضول عظيم، تجمهر الناس حولها، طالبين من الحيزبون أن تحكي لهم ما حدث. فلما فعلت أعتقد الناس جميعًا –بما فيهم الملك والبرهميون والتجار – أن هذه الخدعة من فعل ساحر. ومن ثم صدر في المدينة الإعلان التالي: «ليظهر الرجل الذي خدع تلك المرأة، التي ضحكت على ذقون عدد وافر من العشاق، وسيتسلم على الفور عباءة الشرف!».

فأظهر «لوهاجانجا» نفسه، وقص على الجميع القصة بحذافيرها، ثم قدم للإله فيشنو الهدايا التي أعطاه إياها الملك «فيبهيشانا»، والتي كانت تتألف من الصدفة البحرية والصولجان، وزهرة اللوتس، والقرص الذهبي، وقد وقف الجميع مبهوري الأنفاس يتأملونها في دهشة عارمة. ثم بدأ القوم احتفالاتهم، فدثروا «لوهاجانجا» برداء الشرف بناء على أمر الملك، ثم أعطوه «فاتنة» زوجة له. وهكذا ظفر «لوهاجانجا» بالانتقام من المرأة الشريرة، وقدم للآلهة نذورها وفاز بعدد وفير من الجواهر النفيسة، ثم عاش مع زوجته فاتنة، يرتعان في السعادة والهناء!

حكمة ماهوداسا

خرجت امرأة –ذات يوم –حاملة طفلها الرضيع إلى بركة، تقع على مقربة من منزل الحكيم «ماهوداسا»، لكي يستحم، حتى إذا فرغت من ذلك أرقدت الطفل على الضفة، ثم نزلت –بدورها –في البركة لتغتسل. وفي تلك اللحظة لمحت الطفل غولة، فراق في عينيها وسال اللعاب من فمها، وتاقت نفسها إلى التهامه. وقد استعانت بالسحر فجعلت نفسها في هيئة امرأة في منتصف العمر . وتقدمت إلى الأم قائلة: «إنه لطفل جميل يا صديقتي. أهو ابنك؟»، فأجابتها الأم قائلة: «نعم»، فسألتها: «أتراك تمانعين في أن أرضعه؟»، فأجابت الأم قائلة: «كلا».

وعندئذ حملت الغولة الطفل بين ذراعيها، وراحت تهدهده في حنان، حتى إذا اطمأنت إلى أن الأم منهمكة في الاغتسال، أطلقت

ساقيها للريح. ووصل صراع الطفل -الذي أفزعته حركة الغولة المفاجئة -إلى مسامع أمه، فخرجت من البركة راكضة خلف الغولة، حتى إذا لحقت بها انتزعت فلذة كبدها من بين ذراعيها، سائلة إياها: «إلى أين أنت ذاهبة بابني؟». وكانت دهشة الأم عظيمة حين قالت لها الغولة: «إنه ابني أنا. فهل تريدين أن تغتصبيه مني؟»

وأصرت كل منهما على أنها أم الطفل. وبينما كانتا تتناقشان بصوت مرتفع، مرتا ببوابة الحكيم «ماهوداسا»، فخرج هذا من منزله ليتبين جلية الأمر. وسأل المرأتين قائلًا: لماذا تتشاجران، فراحتا كلتاهما تدليان بقصتهما في وقت واحد، بيد أن الحكيم لم يلبث أن اكتشف حقيقة الغولة من احمرار عينيها، وثبات مقلتيها في محجريهما. فسألهما قائلًا: «أتراكما ستخضعان لقضائي فأجابتاه: «نعم. سنخضع».

ورسم الحكيم فوق الأرض خطًا بعصاه ووضع الطفل فوقه، ثم طلب من الغولة أن تمسك بذراعيه، ومن الأم أن تمسك بساقيه، وأن تجذبه كل منهما ناحيتها، وتكون الفائزة هي الأم الحقيقية!

وبدأت كل منهما تجذب الطفل نحوها بكل قوتها، فندت عن الطفل صرخة حادة من فرط الألم، وعندئذ أفلتته الأم على الفور وكأنما انشطر قلبها إلى نصفين، ثم وقفت في مكانها تبكي بحرقة.

فنظر الحكيم نحو جمع من الناس تجمهروا حولهم، وسألهم قائلاً: «أي قلب هو الذي يتأثر لألم الطفل! أهو قلب الأم أم قلب امرأة غريبة؟ ».

فأجابوه: «إنه قلب الأم، أيها الحكيم».

فسألهم مرة تانية: «أيهما الأم وأهي المرأة التي ظلت تجذبه دون أن تتأثر بألمه، أم الأخرى التي أفلتته! ».

فأجابوا قائلين: «بل الأم التي أفلتته! »

فقال: «ألم تكتشفوا بعد حقيقة المرأة التي ظلت تجذبه؟»

فأجابوه: «كلا. أيها الحكيم!»

فقال: «إنها غولة، وقد خطفت الطفل لتلتهمه».

فسألوه: «وكيف عرفت ذلك أيها الحكيم؟»

فأجابهم: «من احتقان عينيها ومن ثبات مقلتيها. ومن اختفاء ظلها. وقسوة قلبها!»

ثم استدار إلى الغولة يستجوبها قائلًا: «من تكونين؟»

– إنني غولة يا سيدي.

– ولماذا خطفت الطفل؟

– لألتهمه يا سيدي.

– أيتها الحمقاء الرعناء. لقد ولدت غولة بسبب الشر الذي ارتكبته في حق الآلهة والبشر، في حياتك السابقة. وها أنت تعودين إلى اقتراف الشر. حقاً إنك لغبية حمقاء!

وظل هكذا يوبخها ويقرعها ثم لم يصرفها من حضرته حتى أقسمت له على مراعاة المبادئ الخمسة. أما أم الطفل فقد راحت تسبح بحمده وتدعو له بطول البقاء، ثم حملت طفلها وانصرفت.